# النُوْرْسي وجذور رؤيته الإنسانية

أ. د. عشراتي سليمان[Ψ]

استوعب النُوْرْسي معنى الإنسانية ضمن وعي ديني كوني مفتوح على العالمية.. إذ الإسلام هو دين الله الذي لا يقيم الحواجز بين البشر وإن ألحدوا، وإن تباينت عقائدهم. فالمسلم يؤاخي في التوحيد اليهودي والمسيحي والكتابي عامة، ولا يرى فيهم أعداء أو خصوما ما كان الاحترام والقسطاس مرعيا بينهم، بل ويؤاخي كذلك الملحد والوثني بحكم الرابطة الإنسانية، ويشفق عليهما ولا يهينهما أو يزدريهما ما بقيا في حدود قناعتهما، ولا يسعه عندئذ إلا أن يتمنى لهما الهداية.

ذلك لأن النُوْرْسي يرى في مخلوقية الإنسان ذروة الإعجاز الذي شاء الله أن يجسد من خلاله قدرته ومطلقيته، إذ الإنسان هو تاج الوجود ، وكل ما أبدعه الله من أكوان ونعم وأفضال ، إنما هي لفائدته ولتكريميته:

"كذلك الإنسان الذي هو ثمرة شجرة الكائنات، إذ المقصود من إيجادها إنما هو الإنسان وغاية إيجاها إنما هو الإنسان، وغاية إيجاد الموجودات هي الإنسان، وبذرة تلك الثمرة قلب الإنسان ، وهو أنو مرآة للصانع الجليل وأجمعها. [1]

كما نشأ إدراك النُوْرْسي لمعنى الإنسانية من خلال صلة روحية وعضوية جمعته برائع النماذج القطبية التي تواصل معها بواسطة ثقافة بيته الصوفية، حيث كان – وسيبقى – الضمير الجماعي لتلك البيئة يكبر ويمجد تلك النخب الصالحة من الأقطاب، والتي كانت سيرتها كما تواترت وتلقتها الأجيال، مجالا للعظمة والكمال والقدسية.. من حيث طفق الوجدان الفردي والجمعي يستلهم شواهد التضحية والصبر والتجرد والسماحة والبذل.

---

Ψ من موليد الجزائر سنة 1946دكتوراه دولة في أدبية الخطاب القرآني واستاذ كرسي الدراسات القرآنية والمقارنة بين الديانات في جامعة وهران ورئيس جمعية الدراسات القرآنية وإحياء التراث ومدير عام مجلة الحداثة بمعهد الآداب بوهران ومؤسس مجلة الدراسات المغاربية ومدير تحريرها ومدير تحرير حوليات جامعة وهران ونائب رئيس جمعية المغاربة لإدماج العلم والتكنلوجيا في التنمية وله ثلاثة كتب مطبوعة ومقالات كثيرة.

لقد أنبأتنا سيرة النُوْرْسي واعترافاته أنه ظل منقادا إلى تأثير الأفـــذاذ مـــن رجـــال التصوف وأهل السلوك، وأنه انحاز إليهم بمواجده وأن خميرة قيمه الإنسانية تأتت مـــن نفاذ ذلك الوهج المعنوي الذي كان يتلقاه من سيرهم. لقد تسامى هـــؤلاء القديســـون الأطهار ونظروا إلى الكون والوجود من منظور رباني، فأضـــفوا محبتـــهم وسماحتـــهم وكرمهم على كل شيء، لاسيما على الإنسان، فلا غرابة أن تغدو البشرية جملة قريبة إلى قلوبهم يعطفون عليها ويرأفون بها وينظرون إليها بعين الإشفاق..

على ذلك النهج سار النُوْرْسي، وفي ظله تشكلت رؤيته للكون والإنسان، وعلـــى خطا الأطهار بلور عقيدته ونظرته إلى الكـــون وعلاقتـــه بالمخلوقـــات وفي مقدمتـــها الإنسان.. فلا عجب أن تتفتح دعوته على الإنسانية قاطبة، وأن تتميـــز رؤاه ببعـــدها الشمولي الذي لم يغفل أي بعد من الأبعاد المحققة لفردية الكائن البشـــري ، باعتبـــاره المخلوق المكرم في هذا الكون.

لقد ارتكزت روحية النُوْرْسي على دعامة الإيمان بالله ، فتواصلت أعماقـــه مـــع الله وتواشجت مع مخلوقاته وفي طليعتها الإنسان. لقد ورث عن بيئته الأولى حسا توحيـــديا حيا، فالانغلاق الذي عاشته بيئاتنا التقليدية كان له فضل كبير على حفظ القيم وصون الايمان، حيث أن جو الانقطاع الاجتماعي الذي تعيشه القرى والمداشر يعـــزز قابليـــة التوكل على الله ، ويقرب عالم الغيب إلى النفوس، فثقافة العزلة نفســـها تشـــحذ روح البسالة والتوكل على الخالق فهي من ثمة سبيل معزز للايمان .

ذلك لأن النفوس في رتابتها المعتادة تعيش التفرغ ، ولما كـــان التفـــرغ في البيئـــة الإسلامية يعني التوجه إلى الله والاشتغال بما يعطي للحضور الإلهي كثافته ومحسوسية على صعيد الروح والنفس، فقد تكيفت روح النُوْرْسي منذ نشأتها على هذا الحضور الإلهـــي الذي يلازمها أينما توجهت، الأمر الذي ولد في النفس هذه القوامة الـــتي تترتـــب في كنفها النـــزعات والمطالب. ثم إن العقيدة الإسلامية بما تحمل من منظومة قيم ومبـــادئ إنما هي عقيدة إنسانية بلا منازع.

إذ الطبقات العليا من رجالاتها، ممن يعدون مناط القدوة والأسوة بـــدءا بالرســـول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان، يعتبرون جميعـــا مصـــادر شحن وشحذ للهمة والرحمة والسمو. كما أن أحداث التاريخ الإسلامي تعد صـــعيدا حافلا بوقائع السماحة التي تشمخ بها معاني الإنسانية. وكلها تعاليم وقيم تمرس عليهـــا النُوْرْسي، وتشبع بها، وحملها شعاراتٍ، واتخذها سلوكا ورسالة عمل على تحقيقها بكل استماتة .

لكن النُوْرْسي عاش في مرحلة تأجج فيها الصراع الحضاري بين الغرب والشرق على أشرس ما يكون التأجج ، فقد استأنف الغرب حملاته الصليبية واستهدف بها العـــالمين، يستأصل الأمم ويهجرها بالملايين من قاراة لأخرى، ويمسح الشعوب تدجينا لها لتتقبـــل وجوده وسيادته عليها ، وكان صراع الصليبية مع الإسلام ذروة المخاض العراكي الذي شهده القرنان التاسع عشر والعشرون، الحقبة التي عاشها النُوْرْسي، واصطلى بلهبها.

تلك هي تقريبا الأسس التي ارتكزت عليها إنسانية النُوْرْسي ، هذه الإنسانية الــتي سنراها تتخصب وتغتني في تالي مراحل حياته.. حيث سنجد الرؤية تتكيــف مــرتين، الأولى يوم دخل استانبول نكرة لا يعرفه أحد تقريبا، فقد كان طبيعيا في ذلــك اللقــاء الأولي بالمدينة أن يتوسع إطار الوعي لديه وتمتد ظلال الفهم وتتخصب الرؤيــة بأبعــاد أخرى يتعزز في ضوئها وازع إنسانيته.

كما أن عودته إلى نفس الصعيد المدني، من خــلال ملابســة الأوســاط المدنيــة ومرجعيات المجتمع الحضري ، أثناء الحرب الكونية الأولى، قد عمق ذلك التكييف الذي رأيناه يتعهد به مثله وقناعاته الإنسانية .. وهو ما أسفر عن تحول في المسيرة ، تحول جعله يختار موقعا أكثر استراتيجية في تفعيل الأحداث والتاريخ، وفي تكريس رؤيته الإنســانية المستمدة من القرآن..

لقد نضجت رؤيته الإنسانية في كنف الحياد والتسامي والتأمل .

حقا إنه نافح عن الإسلام والمسلمين ، وصاول عن انتماء وحضارة ، لكن العقــل يثبت أن دفاعه عن تلك القيم والمقومات إنما كان دفاعا عــن الإنســانية، إذ لم يكــن الإسلام يوما – ولن يكون – إلا حضارة مشرعة للعالمين، ومثابة تمحي فيها العصبيات والانتماءات ، إذ الانخراط في سلك الإسلام انخراط في الكونية بأســس حــددها الله ، وأثبتت القرون من الازدهار الحضاري الإسلامي أنها — حقا – أسس تستجيب بأصالة لمفهوم العالمية والتآخي والانتماء القدسي الذي تزول معه كل الاعتبــارات الشــكلية والوضعية المميزة بين الآدميين.

لم يكن تمجيد النُوْرْسي للترك والعرب – كما سنرى في غير هذا المقــام – عصــبية وانحيازا يتنافى مع المثل الإنسانية التي حملها ، ولكنه كان تمجيدا للكونية الإسلامية الــتي جسدت على أرض الواقع مبدأ المساواة ، وبينت كيف تتعاور الأم والشــعوب علــى صعيد الإسلام حق وشرف حمل الرسالة المحمدية ، وكيف لا يقف دون حيازة شــارتها القدسية – الخلافة – الاعتبار القومي أو الروحي..

إن روح النُوْرْسي – بكل تأكيد – سوف تبادر من عالمها الأخـــروي إلى التنويــــه وتعظيم كل قبيل من أهل الأرض يكتب له أن يشمخ براية الإسلام ويتطاول بعزة القرآن ويدفع بها إلى العالمين، كيفما كان لون هذا القبيل أو موطنه أو ماضـــيه.. ذلـــك لأن المنظور الذي قوَّمَ به النُوْرْسي البشرية منظور رباني لا تمايز بين الناس فيـــه إلا بالعمـــل الصالح.. وأي عمل صالح أسنى من رفع راية الإسلام وإشهارها بين العالمين ، فبـــذلك العمل الصالح مجد النُوْرْسي كلا من أمتي الترك والعرب ، وكان تمجيده لهمـــا ينـــدرج ضمن سياق إنساني لا شائبة فيه من عرقية أو شوفينية أو تعصب.

شهد النُوْرْسي عن كثب عالما متفجرا تتعارض فيه الرؤى السياسية والايديولوجيـــة حيال الإنسان والحضارة والكون والوجود ، ورأى كيف أن الغرب الطاغي يعنت الأمم والشعوب المستضعفة ويرغمها على الرضـــوخ إليـــه بـــالقوة والســـلاح أو بالـــدس والاستغواء..

عاين النُوْرْسي من موقعه الاعتكافي ذلك التعارض الحدي الذي كان يميز أوضاع كل من الإنسان المسلم المقهور والإنسان الغربي القاهر، وتفجع بعـــدم تكـــافُؤ الشـــروط الصراعية بين الجانبين ، وزاده أسى أن يرى توفيقات الغرب العلمية والتقنية والحضارية لا تلطف من غلواء طغيانه ضد الشعوب والإنسانية ، ولكنها تسَعِّر منها قدما.

لقد كان يدرك أن الحلبة تجمع بين انتماءين وبين نموذجين حضاريين لكن أوضاعهما الراهنة تباين بينهما قيمة ودينامية وتوجها وفاعلية.. لقد كان الإنسان الأول يرسف في قيود الماضي الشائه ، ضحية للانحطاط ولحال متفاقمة من الابـــتلاءات والصـــدمات.. وكان إلى ذلك مدعوا للانتفاض وإنجاز الانبعاث في إطار كوني تبليغي تؤهله له رسالته القرآنية لو وجد إلى الرشد سبيلا .

فيما كان الآخر منتصبا بخيلاء ، مشهرا سيفه بجوع الى الفتك ، يدوس بقدميه كرامة الإنسانية ويضرب مقدساتها .. لقد كان هو الآخر ضحية لأحوال مدنية راهنة تكرست فيها اختلالات متوارثة وجهت العقل في وجهة الظهور العلمي المتوحش غـــير المقيـــد بالضوابط الإنسانية. لكنه مع ذلك كان يتوفر على خمائر جوهرية من الفطرة والتوفيق ما أيسر عليها أن تترشد وترقى إلى علياء المثل لو التفتت إلى الدين الحق ، وهو مـــا كـــان يجعل النُوْرْسي يتوقع للإنسانية الخير ، ذلك أنه كان يرى أوروبا حبلى بالإسلام ، وهي مرشحة إما للإسلام وإما لترشيد مسيحتها بما يقربها من القرآن ويدرجها ضمن نهجـــه، وعندئذ ترتقي البشرية الارتقاء الحق وتهتدي إلى سواء السبيل وتتعزز إنسانية الإنسان.

لقد كانت مقاصد الدعوة النورية هي استنقاذ ما تبقى من إنسانية الإنسان في كــلا المعسكرين ، فتجديد همة المسلم هي عودة به إلى فطرته الخلاقة وإلى استنارته التي لا تزيغ بها أوهام بشريتها ، كما أن تدثير الإنسان ببردة الإسلام هو قمة تكريمه ، لما يترتب عن ذلك من تغيير كلي يمضي به على طريق الصلاح .. لقد توهمت المدينة المســلمة أنهــا بتقمص أوضاع المدنية الغربية ستتخلص من أوحالها ، ولم يعتم الإنسان المسلم أن وعى إفلاسه ، لكنه عجز عن الخلاص ولم يستطع فكاكا عن مأساته، بعد أن أضاع ليس المثل فقط ، ولكن إلى ذلك القابلية والفطرة والاستعداد للخير ، وكل ذلك جراء انغماسه..

فالضرر الذي لحق المسلم ضرر مزدوج ، فهو من جهة محبط بأعباء الانحطاط، وهو من جهة أخرى منسحق بما طرأ عليه من تبعات التمدن السطحي، فعاش الفاجعة.

ضمن هذه الجدلية الحضارية الحادة نهض النُوْرْسي وفي يده كتاب الله ، يــدعو إلى سبيله بالموعظة والحسنى ، غايته تعميق الروح الإنسانية في الإنسان من خلال بث تعاليم القرآن.

**الإنسانية المعاصرة.. على حلبة الصراع الحضاري:**

**جدلية التعايش ضمن الاختلاف:**

لا ينكر النُوْرْسي أن اختلال مسطرة التوازن الاقتصادي قد انعكس بآثاره الســلبية على مسطرة المعايير والأخلاق البشرية، فاختلت من ثمة العلاقة بين الفئات والمجموعات، بل وبين الشعوب والأمم ، وهو ما حول الكرة الأرضية إلى مسرح للعراك المستديم.

يقول النُوْرْسي :

"إن من أساس جميع الاضطرابات والثورات في المجتمع الإنساني إنما هو كلمة واحدة: إن شبعت فلا علي أن يموت غيري من الجوع" [2]

فأنانية الإنسان ، وأنانية الشعوب والمدنيات ، القائمة على ابتزاز الآخرين وهضمهم وسلبهم أسباب العيش والحياة هو ما يفاقم من أسباب التناحر والحروب، فشعار :

" اكسب أنت لآكل أنا واتعب أنت لأستريح أنا." لا يترك مجالا لتعايش أو مسالمة أو تفاهم .

" فالعيش لا يكون إلا بالمحافظة على التوازن القائم بين الخواص والعوام." [3]

وشعار القرآن الذي جاء ليستأصل كل أسباب النقمة والحقــد والعــدوان هــو: أوصدوا أبواب الربا لتنسد أمامكم أبواب الحروب.[4]

لقد سجل النُوْرْسي رحمه الله – وبوعي ألمعي – أن قوى الصراع الحضاري في عالم اليوم إنما تقوم على تصادم بين منظورين ورؤيتين وفهمين للإنسانية: رؤية كافرة تمجد القوة وتعتمد التخضيع، وأخرى مؤمنة تقوم على مثل المحبة والسماحة وعدم الإكراه.

ولما كانت شروط الجانبين غير متوازنة من حيث القوة المادية ، فقد أسفر الصدام عن ظهور غالب ومغلوب ، وهو ما جسدته الظاهرة الاستعمارية كما عرفها العالم في القرنين الماضي والحالي. تلك الظاهرة الجائرة التي هشمت بقرنها الغاشم قيم الكمال والإنسانية ، حيث انحرفت القوى الاستعمارية بالمبادئ والمثل الإنسانية وتجاوزت بها نطاق الفطرة ووظفها في طريق استئثاري ، ابتزازي ، لم يؤجج الصراع على صعيد الحضارات والأديان فقط ، ولكنه انتهى بتفجير المعسكر الغربي الاستعماري ذاته من خلال حربين عالميتين.

وجاءت الديمقراطية – التي روج لها الغرب – بمبدإ تنوع الاختيارات، لكنها عملت باستماتة على تكريس النموذج اللائكي الغربي، قضاء على الآخر.

كما أن المدنية الغربية التي فرضت نفسها كنموذج من خلال التطور الكبير والمطرد الذي حققته على مستوى التجهيز المادي ، قد تقهقرت بالبشرية على صعيد القيم والأخلاق ، إذ خلقت نزوعات شريرة أخرى في الإنسان استطار بها شر المدنية المعاصرة وبات يهدد البيئة والكون والوجود كله..

لقد سجل النُوْرْسي أنه على قدر ما تحقق للمدنية الغربية المعاصرة من قفزات علمية ومنجزات مادية وارتفاقية ، بقدر ما انتكست في مضمار الروح وقيم الخير والفضيلة وفي سائر المثل الإنسانية .

لقد تركز الجهد والاجتهاد الذي طفق يبذله الإنسان المعاصر على تحقيق الربح بلا ضوابط، والمكاثرة الكسبية بلا قيود ، والامتلاك الأعمى من غير حدود.. الأمر الذي ضرب في العمق مسطرة الشرف والعدل، وأصاب في الصميم مفاهيم الأخوة والإنسانية..

لقد أفرزت المدنية الغربية مورثات خلقية مناقضة للفطرة ، وبنى العالم الغربي – مُصَدِّرُ المدنية الحديثة – نسيج القيم التي يتداولها على غير الحكمة ، إذ ضبط سُلَّمَه المعياري على منطق أخلاقي معارض كلية لتشريعات الله وتعليماته..

ولعل أهم مخالفة خطيرة تتسجل على الضمير الإنساني في زمننا الراهن – كما لاحظ النُوْرْسي – تعامله في المجال الاقتصادي بالربا. فالمؤسسات المدنية بإقرارها لأخلاق التعامل الربوي قد اختارت مشاقاة الله من جهة ، وسدت – عمليا – باب التكافل والتعاون والتساند الذي هو من طبيعة البشر ما اطردت سلامة فطرتهم..

ومعلوم أن اعتماد الربا هو مبدأ محوري في منظومة التعاليم الصهيونية، فقد قرر كتابهم – اللاسماوي – مبدأ الاقتراض بالربا لغير اليهودي ، ذلك لأن هذا الكتاب قد اختار لهم أن يقيموا علاقة عداء مع الغير على مختلف الأصعدة ، فلا عجب أن تعم روح العداء تلك ، أقطار العالمين جراء تعامل الأمم والمجتمعات بالربا..

فالاختلال الذي أصاب المثل الإنسانية في الصميم نشأ عن هذه الروح الابتزازية التي كرستها مدنية الغرب اليهو-مسيحية ، فلا غرابة والحال تلك أن تتضعضع أسس هذه المدنية لأدنى رجة.. بل لا عجب أن يتداعوا ، وخلال قرن واحد فقط، إلى حربين كونيتين لحق البشرية جراءهما أهوال وأهوال..

لقد رأى النُورْسي أن المدنية الغربية قد آذنت العالمين بنظم مادية غاياتها الحقيقية لا تكفل للإنسان إلا الضر والشر والفناء.. فأيادي التدمير المادي تمضي بلا هوادة في تهشيم الفطرة وتقويض البراءة وتهديم القابليات..

من هنا استنفر النُورْسي المسلمين ، بل وحتى أهل الفضيلة من الكتابيين، كي يقفوا سدا في وجه الخطر المادي الداهم .. فالمدنية الحديثة جهزت الإنسان بما يسر عليه كثيرا أسباب الحياة وجعلها رخية، لكنها إلى ذلك شحنته بتعاليم الكفر والجحود والضلال.. بحيث سعت إلى قطع أواصر الإيمان بينه وبين الخالق.

لكأن تلاحق التوفيقات والمنجزات والكشوف المادية التي تحققت للإنسان المعاصر عمقت فيه نزوع الغفلة والسهو والجحود. بل لقد تمادى الإنسان المعاصر من خلال تيارات الزندقة والإلحاد ، في النكران ، إذ راح يستظهر بفلسفات إلحادية قديمة ومستحدثة في إفشاء الكفر وتوطيد روح الجحود.. بل لقد تفنن الماديون في تحويل النجاحات الإنسانية على صعيد العلم والتكنولوجية إلى شواهد وبراهين إلحادية ، تصفي الرب – تعالى الله عما يصفون – وتؤله الإنسان..

ولقد كانت خسارة الأمة الإسلامية فادحة بما انتهى إليها من أفكار وفلسفات وتمذهبات مادية إنكارية. فالأمة التي فقدت كل أسباب النهوض أريد لها أن تسلم الروح بإعلان تخليها عن الدين. وشاء الله لأمته أن تسير – وما زالت تسير – وراء حداة ناعقين انعطفوا بالقافلة جهة التغرب وزعموا للأمة أنها ستبلغ غايتها وتحقق أهدافها في الحياة الكريمة والغد الحافل عن ذلك السبيل النكوصي.

ولقد بات جليا لكل ذي عينين أن ما جنيناه من اعتناقنا لسنن الغرب ومثل حضارته المادية لم يزد أحوالنا التقهقرية إلا تفاقما، إذ بتنا نعقد توكلنا في أخص خصوصياتنا على الغرب، بعد أن خسرنا ونحن نتشبه به، ما كان لنا من بقايا همة ودأب وحمية ومعاندة..

من هنا شخص النُوْرْسي للأمة علاج الدين مخرجا لها مما ابتليت به سواء بفعل قرون الانحطاط أو بما أصابها جراء أحوال التفسخ والتحلل التي هي عليهـــا بفعـــل التغـــرب والاستيلاب.

لقد رأى النُوْرْسي أن على أمة القرآن أن تحتمي بالقرآن في هذه الظروف العاصـــفة بالبلاء ، فمن شأن ذلك أن يهيئ لها الإطار الذي يعصمها من الفناء ، لأنه سيكفل لهـــا تخريج الفرد القرآني الذي يستطيع بجدارة الإيمان أن يواجه الكفر ويحقق النهضة و يحتل الريادة..

فمما سجله النُوْرْسي في هذا الصدد تناظر القيم التي باتت مجتمعاتنا الإسلامية تتداولها من خلال تناظر شرائح المجتمع نفسها وما تنتحله كل شريحة مـــن أخـــلاق وأعـــراف وأصول .. فلا عجب أن تتباين المعايير وتختلف الرؤى وتتمايز التوجهـــات في المجتمـــع الواحد عندما تتعدد مصادره الروحية والحضارية والقيمية.. لقد باتت مجتمعاتنا تستجمع تشكيلات من القوى والشرائح تكاد الروابط بينها أن تنعدم. كل ذلك بسبب التـــأثير السيئ الذي تحدثه المدنية الغربية من خلال آلياتها التغريبية الرهيبة..

لقد لاحظ النُوْرْسي أن المجتمع الإسلامي الحديث المتعامل بقيم الغرب وأخلاقيـــات مدنيته قد بات يتواجه على صعيده نموذجان إنسانيان لكل منـــهما طبعـــه وروحيتـــه وصفاته: الإنسان القرآني والإنساني الفرعوني . حيث أن التأثير الاستيلابي الغـــربي قـــد أوجد قطاعه من المخترقين من أبناء الأمة ، على نحو ما أوجدت التعـــاليم القرآنيـــة- والحمد لله- قطاعها المحمدي المتوسع ..

فالتغريب هيأ الأجواء التي صاغ فيها نفسية الفرد المستلب وحدد أوصافها الغرورية والانتهازية والتهافتية بحيث " صير تلميذه الخاص فرعونا لكن يعبد أخس الأشياء ويرى كل سبب نافع أنه ربه .. متمردا لكن يتمسك بنهاية الذلة للذته. ويقبل رجل الشيطان لمنفعة خسيسة . وجبارا لكن لعدم نقطة الاستناد عاجز في ذاته بغاية العجز. وإن غايـــة همة تلميذك : بطنه وفرجه أو منفعة قومه، لا لقومه بل لأجل منفعة نفسه أو تطمين رقة الجنسية أو تسكين حرصه وغروره، ولا يحب إلا نفسه ويفدي لها كل شيء." [5]

أما الجهد القرآني ، لا سيما جهد رسائل النور ، فقد تسنى له بفضل الله أن يخـــرج النموذج الأعلى الذي يسهم في انقاذ أمته وإعادة العزة إليها " وأما خالص تلميذ القرآن فـــ "عبد " لكن لا يتنـــزل للعبودية لأعظم المخلوقات ولا لأعظم المنفعة ولو كانـــت جنة. ولين هين لكن لا يتذلل لغير فاطره إلا بإذنه.. وفقير لكن يستغني بما ادخر له مالكه

الكريم .. وضعيف لكن يستند بقوة سيده الذي لا نهاية لقدرتــه ولا يرضــى تلميــذه الحقيقي حتى بالجنة الأبدية مقصدا وغاية ، فضلا عن هذه الدنيا الزائلة.[6]

ولن تزال الصدمات والنكسات تتوالى على الإنسان ، بسبب ميوعته المكرسة باطراد نتيجة الارتكاس المادي والمدني ، ولن تزال الحقيقة القرآنية تتكشف للعالمين بوجــوب رجوعهم إلى الله والاعتصام منه بسند، وفي أثناء ذلك كله، يبقى على الــداعين لله أن يظلوا متألقين بعزتهم القرآنية، فاشين الخير، باثين السكينة، ضاربين المثــل في الكمــال والاستقامة والتواضع والأريحية..

**ديمومة تجــــدد الإنسان تقتضي ديمومة تجديد الإيمان.**

لقد آمن النُوْرْسي بأن الإنسان فاعلية متحركة ومتبدلة وغير قارة علــى حــال إلا بضوابط السكينة والتعهد والترشيد ، من هنا ألفيناه يحرص على تسوير النفس بمحصنات تكفل لها الدوام والبقاء على حرارة إيمانها ، كي يستمر دورها التعبدي والمــدني علــى مضائه وحيويته.

يقول النُوْرْسي :

" إن الإنسان لكونه يتجدد بشخصه وبعالمه الذي يحيط به فهو بحاجة إلى تجديد إيمانه دائما، لأن الإنسان الفرد ما هو إلا أفراد عديدة ، فهو فرد بعدد سني عمره، بل بعــدد أيامه، بل بعدد ساعاته ، حيث أن كل فرد يعد شخصا آخر .

" ذلك لأن الفرد الواحد عندما يجري عليه الزمن يصبح بحكم النموذج، يلبس كــل يوم شكل فرد ، ثم إن الإنسان مثلما يتعدد ويتجدد هكذا ، فإن العالم الــذي يســكنه سيار أيضا لا يبقى على حال ، فهو يمضي ويأتي غيره مكانه ، فهو في تنوع دائم، فكل يوم يفتح باب عالم جديد. ثم إن الإنسان تتحكم فيه النفس والهوى والوهم والشــيطان وتستغل غفلته وتحتال عليه لتضيق الخناق على إيمانه حتى تسد عليه منافذ النور الإيمــاني بنثر الشبهات والأوهام.. لذا فهناك حاجة إلى تجديد الإيمان في كل وقت، بل في كــل ساعة في كل يوم. "[7]

من هنا كانت أهمية المسجد والمراوحة إليه ، بل من هنا كان سر دورية الفــرائض وموسمية الشعائر .. ومن هنا أيضا كانت فائــدة الجماعــة والتــرابط ، لمــا تــوفره الاحتكاكات من تنبيه وتوجيه وتثمين للعزائم .. فالاستنامة إلى العادة قتل ذريع لحيوية النفس ، وتوريث سلبي لطبائع الإعتياد والآلية التي تنتهي بحجب الوعي وكسر الحــس وإخماد الذوق وهدر التوق.

لقد كان النُوْرْسي يرى للملتقيات أهميتها في تجديد الهمة واليقظة.. ومن قوة بصيرته وجدناه يتلمَّحُ حتى في أحداث اعتقاله المتكررة مع أصحابه فائدة تجديدية، لما كانت ظروف الحبس تثوره في نفوسهم من همة المدارسة وشحذ الإيمان..

لقد كان النُوْرْسي يدرك أن طريق الجهاد يورث العناء ، والعناء قد يكون مدعاة للانتكاس وضعف الحمية ، من هنا أرشد إلى بيداغوجية التذكير ، إذ لابد للبرامج الجذرية وذات المقاصد الحضارية السامية أن تتحوط لمشاق الطريق بترياق التجدد والتنبيه والتنشيط ، حتى لا يسري التواكل والترك والتسييب.

**الإنسان..معجزة خلقية إلهية.**

" قد خلق الله هذا الإنسان مرآة جامعة لجميع أسمائه الحسنى ، وأبدعه معجزة دالة على قدرته المطلقة.. وخلقه على صورة خليفة الأرض الذي يمتلك من الأجهزة الحساسة ما يتمكن بها من قياس أدق دقائق تجليات الأسماء الحسنى.. وما الوسيلة التي تمكن الإنسان من العروج إلى أسمى مقام وهو مقام أحسن تقويم ضمن ما يملكه من الجامعية إلا الشكر. [8]

من هذه الرؤية قدر النُوْرْسي منزلة الإنسان وآمن بخلافيته ، فالإنسان عنوان معجزة الخلق بلا منازع ، ذلك لأن القدرة الإلهية وهي تصوغه أودعت فيه من القابليات والاستعدادات ما من شأنه أن يجعله يتفوق على سائر المخلوقات العجماء الأخرى :

" قد خلق سبحانه وتعالى الإنسان أيضا نوعا جامعا لكثير من الأنواع أي أنه قد أراد أن ينجز بنوع الإنسان ما تنجزه الدرجات المختلفة لجميع أنواع الحيوانات، بحيث حدد قوى سائر الحيوانات ورغباته بحدود وقيود فطرية ، بل جعلها حرة طليقة ، بينما حدد قوى سائر الحيوانات ورغباتها، أي أنها تحت قيود فطرية، بمعنى أن كل قوة من قوى الإنسان تتحول في ميدان فسيح واسع جدا ، لا تتناهى، لأن الإنسان مرآة لتجليات لا نهاية لها ، لأسماء رب العالمين ، لذا فقد منحت قواه استعدادا لا نهاية لها.[9].

من هنا قدر النُوْرْسي أن مسيرة الإنسان في هذا الوجود الأرضي لا ينبغي إلا أن تكون على قوامة تتناسب مع مستوى التكريم والتشريف الذي خصه به الخالق.. فلا مجال حيال هذه المنزلة السامقة والسامية لأن ينحرف الإنسان ويخون مسؤوليته إزاء الله والكون المؤتمن عليه.

" فلأجل تلك الحكمة العظيمة ، خلق سبحانه الإنسان على فطرة جامعة ، لها من القدرة ما يثمر ألوف سنابل الأنواع ، وما يعطي طبقات كثيرة بعدد أنواع سائر الحيوانات ، إذ لم يحدد سبحانه قوى الإنسان ولطائفه ومشاعره كما هو الحال في

الحيوانات ، بل أطلقها واهبا له استعدادا يتمكن به من السياحة والجولان ضمن مقامات لا تحد فهو في حكم ألوف الأنواع ، وإن كان نوعا واحدا .

" ومن هنا أصبح الإنسان في حكم خليفة الأرض ونتيجة الكون وسلطان الأحيـــاء. وهكذا فإن أجل خميرة لتنو النوع البشري وأهم نابض محرك هو التسابق لإحراز الفضيلة المتسمة بالإيمان الحقيقي ، فلا يمكن رفع الفضيلة إلا بتبديل الماهية البشرية وإخماد العقل وقتل القلب وإفناء الروح . [10]

فلا غرابة والحال هذه أن يعتبر النُوْرْسي أشنع خيانة عظمى يسجلها الإنسان علـــى نفسه هي المروق والجحود والكفر.. ذلك لأنها خيانة لا ترتكـــب في حـــق مقترفهـــا فحسب، بل إنها خيانة في حق البشرية والمخلوقات كافة، لأنها اختراق سافر لما تقدســـه تلك المخلوقات ، ولما تؤمن به وتوكل إليه وجودها، فالتجاوز الذي يتسجل في حـــق تلك القدسية الربانية تجاوز في حق الوجود الإنساني بكليته .

لقد اعتبر النُوْرْسي جريرة الجحود والكفر والعصيان اعتداء على الإنسانية وخـــرق لحقوقها ، إذ كيف يحق للإنسان إن ينتهك مقدسات الآخر؟ وكيف يجوز للأقليـــة أن تهدر قيم الأكثرية ، بل لقد وجدنا النُوْرْسي يقرر أن الكفر هو اعتداء على الكائنـــات كافة وظلم لها واستخفاف بوجودها : كفر الإنسان إنما هو تجاوز – أي تجاوز – على حقوق الكائنات ، وأغلب المخلوقات ما يثير غضب السماوات والأرض.[11]

**اليوتوبيا[12] الإنسانية.**

عالم اليوتوبيا يشرط فكر الماديين لأنهم يريدون تحقيق الجنة الأرضية علـــى صـــعيد البسيطة، في ما يعتبر النُوْرْسي القرآني عالمنا الأرضي أو الحياة الدنيا موئل نقص وقصور، إذ هو عالم جسري فقط يفضي بالإنسانية إلى عالم السرمدية الأخروي.

الإنسان الكامل هو ارتكاز التوازن في هذه الحياة ، والوازع عـــن التـــهافت يـــتم بالمجاهدة الأخلاقية وليس عن طريق التهيام الحالم بالمثل وبالمتع الغائبة.

من هنا كان قوام يوتوبيا الماديين هو تحقيق الوفرة الاســـتهلاكية وخـــوض غمـــار الإشباع بلا وازع ، وذاك في حقيقة الأمر حلم غير واقعي، إذ أن هـــذه اليوتوبيـــا لا تتحقق إلا للأقلية، وعلى حساب الأغلبية، ثم إنها يوتوبيا محدودة بالزمان والمكان، فتمتع معشر ما أو قارة ما بالوفرة وبالحرية يغدو مقصورا على أهلها، فإذا ما توارث الخلـــف حالهم وعاشوا على نفس الوتيرة المتخمة كانت الرتابة وكان التحجر..

إما إذا كانت جدلية الحياة طلقة لا تحكمها هلوسات من هذا الحلم الأرضي السرابي، وسارت منضبطة بالناموس الأخلاقي الذي يقرر أن النقص من طبيعة الأرضيين قياســـا

بالكمال الإلهي القدير – وهو ما يتضمن وجوب المكافحة تقويما للنفس – فإن ذلك سيورث بطبيعة الحال السعادة لأن الأجيال ستجد نفسها باستمرار أمام تحديات الضعف البشري ، تخوض الجهاد المزدوج ضد الذات وضد الآخرين على هدي من الله ورشاده.

الإنسان الكامل ليس المجتمع الكامل – فليس هناك المجتمع الكامل ، المجتمع الكامل مجرد يوتوبيا.

والمجتمع الكامل لا يكتب ناموسه ببشريته وإلا دخل في التاريخية، لقد كفلت البعثات الإلهية سوانح زمنية تحقق أثناءها المجتمع الكامل بحضور مادي للأنبياء وتسديد مباشر من السماء.. وقد اطردت للإنسان أسباب الكمال ما اعتصم بحبل الله وسار على توجيهاته لكن الغرور الإنساني ينـزع به أبدا إلى الانحدار ، وهو ما يُغَيِّبُ الكمال عن الحياة..

الناموس الذي تستقيم به الحياة ويعم الكمال، ناموس علوي ، والناموس العلوي ثابت الأصول متجدد الفروع ما كرت الأدهار .

ولنا أن نتساءل لماذا هو ثابت ؟

لأن الإنسانية تعيش النطاق الدائري المغلق على صعيد الطبيعة النفسية والنـزوعية.

فالإنسان يعيش مهما اختلفت المدنيات والعصور بنواة نفسية واحدة ، هذه النفسية تخضع خلال تجربة الحياة للتثقيف والتنميط الاجتماعي. فالاطرادية الإنسانية وإن استمرت في الزمان واسترسلت في المكان، فإنها على صعيد النوازع الفردية طورية واحدة، من هنا يتلازم ثبات النفس والفطرة الإنسانية مع ثبات مبدئي هو الكتاب . أما ما يتجدد فهي الثقافات ..

فثقافة الاستنساخ والأنتارنات والعولمة وما إليها ، هي ليست ثقافة الحرب الباردة والصراع الايديولوجي. الثقافة الجديدة تستدعي تجددا اجتهاديا. أما نـزوعات النفس فهي آدمية واحدة ، لذا كان الناموس الذي يحكمها ربانيا واحدا. وكانت أصوله القارة مناطة بتهذيب النفس وصيانتها من شراسة الأهواء المتجددة بتجدد المدنيات والثقافات.

فواقعية الإسلام لا تؤمن بيوتوبيا أرضية تنتهي عندها أحلام الإنسان.. فما أتعس نفس ترى في أعطاف حلم أرضي محدود بزمان ومكان أقصى مناها. وذلك ما ظل النُوْرْسي يردده وينبه إليه.

**الإنسان الأرجح.**

الإنسان الأرجح هو الذي ما تزال تستبقي فيه التنشئة المدنية جوهره البدوي الريفي، المشرب بالرحمة والألفة والطهر، والمتفتح على المكارم والمشدود إلى الفضيلة..

إن الخطاب المدني المعاصر – وشعورا منه أحيانا أنه فعلا قد غاص في الأوحال المدنية حتى الأذقان – عندما ينوه بالمحلية ويثمن العمق الشعبي، فإنه ينوه بضرب من الإنسان بات – يوما بعد يوم – يعز وجوده ، ألا وهو إنسان الفطرة الذي وصف النُورْسي بساطته الحياتية وبين قيمتها . تلك البساطة التي كانت لا تقتضي الإنسان من تكاليف العيش والحياة إلا لوازم معدودة ، ذلك لأن نفس هذا الإنسان الفطري والذي عناه النُورْسي، إنما كانت نفسا متماسكة ومتصلبة، و لم تكن دواعي الميوعة والترهل والتحلل قد تمكنت منها بعد، على نحو ما نرى عليه مجتمعاتنا التي شاءت أن تكون مجتمعات قردية تحذق لعبة التقليد المضحك.

هناك التزام ينيطه النُورْسي بالإنسان المسلم المعاصر: الجهادية المرشدة التي لا تهدر المكاسب بتهور أو بسوء تقدير للعواقب، الجهادية التي تتحسس موقع قدمها وتبني رهاناتها على مدى قابل ، بكل ما قد يحتم عليها ذلك من خيارات تنازلية (سواء في المجال المادي أو في المجال الروحي ).

فهو التزام تجنيدي يأخذ بمبدإ النظام ولا يومن بالفوضى لأنها ليست إلا إرهابا، ويثق من أن الجهاد المعنوي الشاق هو الذي يفضي بالطليعة من أبناء الأمة إلى طريق النجاح.

لقد هدر الانحطاط عزة الأمة ، وأحالتها عصور الظلمة أكواما بشرية ودهماء رعاعية بئيسة .. واستطاعت النظم المخترقة والمتغربة أن ترسخ فيها أخلاق الخسة والطمع والانتهازية والاستعداد لكل الترديات، لذلك لا يمكن للطليعة المؤمنة أن تتوقع أن تكون قيادة هذه الأمة بما هي عليه من حال، أمرا ميسرا، وأنه يكفي تحديد جهة العدو لها حتى تتصدى وتهب للدفاع..

لقد غرست عهود الانحطاط في روحية الأمة أخلاقا نسخت كثيرا مما كان لها من قيم وخصال وشمائل، وأجهزت أو كادت مساعي التغريب التي استهدفتها على ما تبقى لها من موروث، واستبدلته بما ساسوه بها وروجوه لها من قيم دنيوية مقيتة، إذ لقنها ساستها المتغربون من خلال سيرتهم معها ومواقفهم حيالها وحيال مقوماتها، روح التفريط والاستخفاف، ففشا فيها نتيجة ذلك: الهوان والوهن والنذالة والجبن والمكر، فهي لذلك أمة متقلبة في أهوائها أكثر قابلية للتنازل على الفضيلة ما أن يلوح لها مروضوها بالعظام والفتات..

أجل ، إنها حال عارضة ، مكتسبة ، وقابلة للزوال ما أن تجد من يرود الأمة نحو الأهداف السامية والغايات النبيلة.

لذا توجب على الطليعة القرآنية أن تسلك سبيل الحكمة في سياسة الأمة لإخراجها من ترديها وأن تجهد في توعيتها بما يفتح عيونها على العدو الحقيقي الانحطاط والجهل ومغالطات المتغربين .

فهذه الطليعة مطالبة بأن تتسلح بسلاح الصبر والمصابرة ، وأن تتيقن من أن الصرح الذي أساسه الإسلام ، صرح فخم عتيد، لا يقام في عجلة من الأمر ، بل يتطلب المتابعة وتلاحق استماتة الأجيال..

**الفلسفة الفردية والفلسفة الجماعية .. وحقوق الإنسان.**

على أن مما سجله النُوْرْسي من جور وظلم تتوحل فيه المدنية المعاصرة ،سببه انسياق السياسات البشرية والإيديولوجيات الوضعية وراء معايير وأحكام غير راشدة في مسألة الحق الإنساني.

فمعادلة حقوق الفرد والجماعة تتراجح بين منطقي الإفراط والتفريط ، حيث تتناقض نظرة المدنية الحديثة في موازنة تلك الحقوق وصونها.

ففيما توجد هناك فلسفة سياسية تجعل من الفرد مناط الحريات ومركز المبادرات والفاعليات، توجد مقابل ذلك فلسفة سياسية معارضة لا تنظر إلى الفرد إلا كرقم ضمن المجموعة، ولا تعير للفردية أدنى أهمية إلا في سياق الجماعية. فمن أجل إصلاح الأغلبية لا ضير أن يضحى بحقوق الأقلية..

وواضح أن هذا المنطق إنما يعكس روح التغالب ويترجم نوازع الفتك التي هي صفة الضواري ، والتي تتلبس روح الإنسان المعاصر في نظرته إلى الحياة، من حيث هي مضمار للتبارز والسجالية ، حيث القوي يقهر الضعيف .

الواقع أن كلتا الفلسفتين تصدران عن مبدأ البقاء للأقوى. فعلى صعيد مذهب الفردية تناط الديمومة والمجد بمن يثبت جدارته على صعيد المنافسة. بغض النظر عن الأسباب والقيم التي يتوسل بها المتنافسون في تحقيق مجدهم الشخصي ومكاسبهم ورجاحتهم الاجتماعية .

وكذلك الحال بالقياس للمذهب الجماعي ، إذ لا مكان للفرد ، ولا للأقلية حيال الجماعة والأكثرية..رغم التبريرات التي يرتكز عليها منطق هؤلاء وأولئك.. وهو ما يشير إليه النُوْرْسي في ملاحظاته التالية :

" إن القانون الأساس للسياسة البشرية هو أن يضحى بالأفراد من أجل سلامة الأمة، وتفدى بالأشخاص حفاظا على الجماعة، ويرخص كل شيء في سبيل حماية الوطن، فجميع الجرائم البشعة التي ارتكبت في حق البشرية إلى الآن إنما كان يرتكب بالاستعمال

السيء لهذه القاعدة ولهذا القانون الأساس، فلقد تيقنت من هذا يقينا قاطعا، فهذا القانون البشري الأساس ليس له حد ولا ضوابط مخصصة، لذا فقد مهد السبيل للتلاعب باستعماله بكثرة.

ويستطرد النورسي موضحا مزالق هذا القانون المنحرف وما كبده للإنسانية من تضحيات ، فيقول :

" إن الحربين العالميتين قد نشبتا من سوء استعمال هذا القانون البشري الأساس، فأبادت نهائيا ما توصلت إليه البشرية من رقي منذ ألف سنة".[13]

فسواء الفلسفة التي تحصر النظرة في الفرد وحده ، أو تلك التي تركز الإهتمام على الجماعة مطلقا ، كلتاهما تتحجمان في إطار من الوعي آني ، ولا شأن له بأبعاد النفس أو الروح والقلب.. بل إنهما معا تضيقان الخناق على الإنسان إذ تحصران فاتورة الحساب في الشرط المادي والاستهلاكي والإنجازي الملموس..

من هنا انعدم في رؤيتهما معا المعطى الوجودي المتمثل في الآفاق الزمنية المشهودة والمغيبة التي يعيشها الإنسان كحقيقة نفسية لا يتخلى عنها أبدا ، وإلا ما باله يعيش دائبا على السعي حتى كأنه لا يموت.

كلتا النظرتين حصرت تقديرها الإنساني في الكمية ، فالجماعية هي من بعض الوجوه فردية، مادامت الجماعية لا تؤمن بالاختلاف، فهي من ثمة واحدية ، وكذلك حال الفردية، إذ هي الأخرى لا تؤمن بغير الواحدية، إذ الأنانية تحجب عن العين وجود الآخر، وبالتالي تغدو المصلحة هي مصلحة الذات ولا سواها، والصراع صراعا من أجل تحقيق الذات ولا شيء غيرها .. من هنا كان انغلاق النظرتين في المكان، وانحجارهما في الزمان، إذ لا معالم تلوح للنفس في الأفق إلا ما تفرضه اللحظة من دواعي الحركة والفعل من أجل النجاح المادي..

" إن حياة أرباب الضلالة والغفلة، بل إن وجودهم وعالمهم ما هو إلا يومهم الحاضر، حيث أن الأزمنة الماضية كلها وما فيها من الكائنات معدومة، ميتة، بسبب ضلالتهم ، فتردهم من هناك حوالك الظلمات. أما الأزمنة المقبلة فهي أيضا معدومة بالنسبة إليهم ، وذلك لعدم إيمانهم بالغيب ، فتملأ الفراقات الأبدية – التي لا تنقطع – حياتهم بظلمات قاتمة، ما داموا يملكون العقل وما داموا جاحدين بالبعث والنشور.[14]

فرؤية الإنسان لن تسدد إلا إذا وعى وآمن أن دوره الإنساني في الحياة ليس استمتاعيا فقط ولكنه دور منتج للخير مسؤول: إن الإنسان لم يأت إلى هذه الدنيا للتمتع والتلذذ.[15]

" فالإنسان إذاً ، لم يأت إلى هذه الدنيا لقضاء عيش ناعم جميل مغمـــور بنســـمات الراحة والصفاء ، بل جاء إلى هنا ليغنم سعادة حياة أبدية دائمة بما يسر له من ســـبل التجارة برأس ماله العظيم الذي هو العمر. [16]

لقد فتح النُورْسي باب الفقه الأكبر في وجه الخدمة الإنسانية، ومارس التوجيه مـــن منظور شمولي قائم على مَفْهَمَة الظواهر والملابسات، وعلى تأسيس معرفة مرحمية مـــن خلال التفاته إلى عالم المرضى والعجزة وإلى الشباب والنساء والأطفال.. فقـــد عـــالج أحوال هذه الفئات بروح إنسانية وضعت أسسا لتكريس نظرة جديدة للمرض والعجز وللحيرة واليأس والمكابدة..

بل لقد امتدت رؤية النُورْسي الإنسانية إلى مسائل الموت ورزايا اليتم والثكل وفقد الأحبة ، فمَفْهَمَها من منظور إنساني لم يكفكف الدمعة فحسب، ولكنه حري بأن يدفع بالنفس على طريق تبني وعي جديد لظواهر الحياة والموت، وربط علاقة جديدة بالكون وبتواضعات الحضور والغياب وقيود المكان والزمان والعقل والقلب.

ونحن نعتقد أن إسهام النُورْسي رحمه الله في تأسيس ما يمكن أن نســـميه انتولوجيـــا وجود إسلامي (علم وجود إنساني ) إسهام كبير ، ويمكن أن تقوم على صعيده جملة من المباحث تشمل علوما أخرى في مقدمتها علم المستقبليات وعلوم الـــنفس والأخـــلاق والفلسفة والروحانيات .. لاسيما وأن معارف التراث قد حوت خمائر مشجعة في هذا السبيل..

**بواعث السقوط في النفس البشرية ..**

تتحكم في الإنسان عناصر ذاتية ومعنوية متداخلة يجملـــها النُورْســـي في : الـــنفس والهوى والوهم والشيطان..

وإذأ أردنا أن نعرف معاني هذه العناصر، نقول : النفس هي جماع القوى النـــزوعية والشهوية التي يصدر عنها الإنسان في حياته الطبيعية. فلذة الأكل مثلا شـــهوة، وأمـــا البخل فنـــزعة .

وأما الهوى فقوامه شهوات الإنسان ورغائبه الفطرية والمكتسبة من ملاذ ماديـــة أو منازع معنوية مثل حب الظهور أو الرئاسة أو ما إلى ذلك.

وأما الوهم، فهو التقديرات غير السديدة والتصورات غير المؤسســـة والافتراضـــات اللاموثقة التي تتأتى للإنسان وتخامره، ويكون الدافع إليها غالبا التطلع النفسي والتشوق لما ليس في الوسع.. أو ما هو مغيب .. فالآمال تزين للنفس المقاصد وتضـــفي عليهـــا وشاحا من الجاذبية قد لا يكون له أساس في الواقع.

وأما الشيطان ، فهو تلك القوى الخارجية التي أناط الله بها تبعة أفعال المغالطة والتضليل التي يتعرض لها الإنسان إذا ما غفل عن واجباته الشرعية المحصنة له ضد كل زيغ.. " وما إنسانيه إلا الشيطان".

ويبدو أن الإنسانية قد ظلت تجنح إلى تشخيص الشيطان في ماهيات مادية ملموسة، فالكنيسة إلى وقت قريب ظلت تعتبر المرأة شيطانا ، والإيديولوجية الشيوعية كانت تسقط مفهوم الشيطان على الرأسمالية ، والصهيونية ترى فينا شيطانها الأخطر..

غير أن ماهية الشيطان – كما قررها القرآن العظيم – إنما هي قوة توسوس بالشر وتنحرف بذوي النفوس غير المثبة بحبل اليقين ، لتجرفهم في طريق الغواية كما جرفت أبا البشر آدم عليه السلام وزوجه حواء.. (**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**). [البقرة: 36].

على أن النُوْرْسي يرى أن للنفس حركة تنقلب بها من حال النفس اللوامة إلى حال النفس الأمارة ، وهو ما يقتضي من الأطهار مزيدا من الجهد تضييقا للخناق عليها حتى لا يندَّ عنها ما يفسد الخلوص ويخل بالنية :

قد يحدث أحيانا أن تنقلب النفس الأمارة إلى نفس لوامة أو مطمئنة، إلا أنها تسلم أسلحتها وأعتدها إلى الأعصاب والعروق فتؤدي الأعصاب والعروق هذه تلك الوظيفة إلى نهاية العمر، ورغم موت النفس الأمارة منذ مدة طويلة، فإن آثارها تظهر أيضا، فهناك كثير من الأولياء والأصفياء العظام شكوا من النفس الأمارة رغم أن نفوسهم مطمئنة، واستغاثوا بالله من أمراض القلب رغم أن قلوبهم سليمة ومنورة جدا ، فهؤلاء الأفاضل لا يشكون من النفس الأمارة ، بل من وظيفتها التي أودعت إلى الأعصاب.[17]

فنزغات النفس ما هي إلا صدى لحضور الشيطان ولفعله ووسوسته . هذا الشيطان الذي لا يشك النُوْرْسي في وجوده كما يتوهم الماديون .

وحتى يثبت كينونة الشيطان فقد وجدناه يطابق بين عالمي الإنسان والكون، فإذا كان عالم الإنسان مأهولا بقوة النفس الأمارة التي هي بمثابة الشيطان ، فلا يستغرب العاقل إذا ما عمَّرت عالم الكون من حولنا قوة غير مدركة هي الشيطان، وهذا تماما على غرار ما تعمر كياننا البشري نحن ، النفس الأمارة..

فعن طريق المطابقة بين عالمي الإنسان والكون استبان النُوْرْسي كينونة الشيطان.

من خلال تحليلة لمكونات الباطن النفسي وأنشطتها ، حدد موقع النشاطان ووسوسته، وما تهيئه النفس الأمارة من شروط تمكن للشيطان من أن يخترقها.

يقول النُوْرْسي:

" كما أن الإنسان عالم صغير، كذلك العالم إنسان كبير، فهذا الإنسان يمثل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسه، فالنماذج المصغرة في الإنسان لابد أن أصولها الكبيرة المعظمة موجودة في الإنسان الأكبر بالضرورة. فمثلا القوة الحافظة في الإنسان دليل قطعي على وجود اللوح المحفوظ في العالم. وكذلك يشعر كل منا ويحس أن في قرارة نفسه وفي زاوية من زوايا قلبه آلة وعضوا للوسوسة وهي اللمة الشيطانية التي هي لسان شيطان يتكلم بتلقينات القوة الواهمة ،

" هذه القوة قد تحولت بفسادها إلى شيطان مصغر ، لأنها لا تتحرك إلا ضد اختيار الإنسان وإرادته وخلاف رغباته الحقيقية. إن هذا الذي يشعر به كل إنسان حسا وحدسا في نفسه دليل قطعي على وجود الشيطان الكبيرة في العالم الكبير. ثم إن هذه اللمة الشيطانية وتلك القوة الواهمة تشعران بوجود نفس شريرة خارجية تنفث في الأولى وتستنطق الثانية وتستخدمها كالأذن واللسان. [18]

لكن الإنسان ليس نقصا محضا، ونفسه ليست زيعا مطلقا، فهي إلى جانب شريتها، تحوز الخيرية ، بيد أن الاحتفاظ بمستوى تلك الخيرية راجحا ، وعلى مدى متواصل يتطلب دحر النفس الأمارة ، وما أشق دحرها ، كما يقرر النُوْرْسي.

**النفس :**

النفس تركيب من النفس المزكاة ومن النفس الأمارة ، لكن التمرس الامتحاني جعل النُوْرْسي يكتشف ازدواجية في النفس الأمارة ذاتها ، إذ لها رديف آخر من جنسها لكنه أعتى غواية وأشرس زيغا ، يحول بين المرء وبين الخلوص..

لكأن للنفس الأمارة ثوبا تغادره وتتركه وراءها حين يُضَيِّقُ المرء عليها بالتعهد التعبدي وبالترويض الإيماني وبالمكافحة التطهيرية،

إن من شأن ذلك الترويض أن يفلح في جعلها تخرج من كينونته الباطنية، لكن خروجها ذلك ليس في الواقع إلا خروجا جزئيا أو شكليا، لأن النفس الأمار لا تغادر الكيان إلا بعد أن تترك فيه ثوبها.

فخروجها يأخذ – على وجه تقريبي – صورة الثعبان وهو ينسلخ من ثوبه، ولذلك هي سرعان ما تنبثق من ثوبها ذلك ، كالحية ينجم السم الناقع حتى من رماد عظامها.

" هناك نفس أمارة معنوية – غير دسائس النفس الأمارة الحقيقية – هي أشد عصيانا من الأولى وأكثر نفورا من الطاعة، وأكثر إدامة للأخلاق الذميمة، هي النفس الثانية، وهي مزيج من الهوس والمشاعر والطبائع وهي موغلة في الأعصاب والعروق، وهي

الحصن الأخير الذي تحمي به النفس الأمارة، وهي التي تتولى القيام بوظيفة النفس الأمارة السيئة السابقة – التي تركبت منها – فتجعل المجاهدة تستمر إلى نهاية العمر.

" ولما كانت حواس هذه النفس الأمارة الثانية عديمة الشعور .. لا تفهم أقوال العقل ولا تدرك نصائح القلب ، ولا تعير لها سمعا كي تنصلح وتدرك تقصيراتها، لذا لا ترتدع عن السيئات إلا بلطمات التأديب وصفعاته وبالآلام ، أو بالتضحية التمامة بحيث يضحي المرء بمشاعره وحواسه كلها للهدف الذي يصبو إليه فيترك أنانيته كليا ، بل كل ما يملكه لذلك الهدف .. [19]

فالنفس هي جماع النوازع المردية ، وقد أودت بإبليس إذ جعلته يقف أمام الخالق باستكبار وأنانية ، فاتحا الطريق أمام انحرافات الإنسان وتَفَرْعُنه ، وليس مثل العبادة ملجما للنفس عن زيغها ، وليس مثل التقوى مخرسا لهمزاتها.. فبالتخلي عن العبادة تستفحل النفس وتطغى أنانيتها ، وهو ما سجله النُوْرْسي بقوله:

إن الأنانية تتقوى بنقصان العبادة ، فيزداد الداعون إلى فرعونية النفس. [20]

كما أن " الإنسان الحقيقي هو الذي برأ من الغرور ومن الغفلة التي تؤدي به إلى التيه في ظلمات الأوهام. [21]

من هنا راح النورسي يشدد على أهمية العبادة في بناء الكمال النفسي وتطهير البواطن واستكمال اللطائف وتثبيت الإخلاص :

" واما جهة الكمال النفسي فاعلم أن الإنسان مع صغر جرمه وضعفه وعجزه وكونه حيوانا من الحيوانات، ينطوي على روح غال ويحتوي على استعداد كامل، ويتبطن ميولا لا حصر لها، ويشتمل على آمال لا نهاية لها، ويحوز أفكارا غير محصورة، ويتضمن قوى غير محدودة مع أن فطرته عجيبة كأنه فهرست للأنواع والعوالم. فالعبادة هي السبب لانبساط روحه وجلاء قيمته.. وأيضا هي العلة لانكشاف استعداده ونموه ليناسب السعادة الأبدية.. وكذا هي الذريعة لتهذيب ميوله ونزاهتها .. وهي وسيلة لتحقيق آماله وجعلها مثمرة ريانة ..

" وكذلك هي الواسطة لتنظيم أفكاره وربطها.. وأيضا هي السبب لتحديد قواه وإلجامها.. وهي الصيقل لرَيْنِ الطبيعة على أعضائه المادية والمعنوية التي كل منها كأنه منفذ إلى عالم مخصوص ونوع إذا شَفَّ .. وأيضا هي الموصل للبشر إلى شرفه اللائق وكماله المقدر، إذا كانت بالوجدان والعقل والقلب والقالب ..وكذلك هي النسبة اللطيفة العالية ،

والمناسبة الشريفة الغالية بين العبد والمعبود. تلك النسبة هي نهاية مراتب كمال البشر.

" ثم إن الإخلاص في العبادة هو: أن تُفْعَلَ لأنه أُمِرَ بها ، وإن اشتمل كل أمر على حكم ، كل منها يكون علة للامتثال، إلا أن الإخلاص يقتضي أن تكون العلة هي الأمر، فإن كانت الحكمة علة فالعبادة باطلة، وإن بقيت مرجحة فجائزة.[22]

ذلك هو الامتحان الحاسم الذي أناطه الله بالنفس ، حيث جعل خضوعها التطهري حياله سببا للارتقاء ، بعض النظر عن إدراكها أو عدم إدراكها لكنه الشعائر التي قررها الله عليها وذممها بها..

**الهوامش:**

1 الكلمات.734.
2 الكلمات474
3 الكلمات 474
4 الكلمات 474
5 المثنوي 270/270
6 المثنوي 270/270
7 المكتوبات 428.
8 المكتوبات473
9 المكتوبات.426
10 اللمعات. 258.
11 الشعاعات.312
12 قصدنا بها المدينة الفاضلة كما ترسمتها عقول الفلاسفة وأرباب الإيديولوجيات الدنيوية.
13 الملاحق 377.
14 الملاحق 175.
15 اللمعات 317.
16 اللمعات.317.
17 المكتوبات.423.
18 اللمعات.127.
19 الملاحق 210
20 الملاحق 392
21 المكتوبات 818
22 إشارات /149